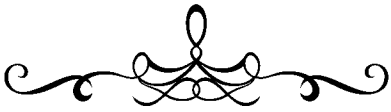

السلطان محمد الفاتح

فاتحُ عروسِ المدائن

"إسطنبول" مثالُ المدينةِ الجميلة، إنها لَتمتاز عن غيرها بامتيازاتٍ كثيرة؛ فهي جسرٌ بين القارَّات، ونقطة اتصال تجارية لثلاثة بحار كبيرة، وهي أكثر مدينة في العالم نُظمت بحقّها الأشعار، وغنِّيت فيها أغانٍ، وصدَحت في فضائها الألحان، إنَّها المدينة التي حاولت السيطرة عليها دُوَلٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى.

لهذه الخصائص وغيرها لا تُوصَف إسطنبول بأنَّها مدينة تقليدية، أو بأنها مدينة كبيرة جدًّا، بل هي على حدِّ قول "توينبي (*Toynbee*)": "مدينة عالم المستقبل"، فالحضارة والثقافة الإغريقيَّة إلى جانب الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة والبِيزنطيَّة ومعهم الدولة العثمانية كلُّهم تطلعوا إلى إسطنبول على أنَّها قُرَّة العين وسَمَّوها: أمَّ المدائن[1].

قال عنها القائد الفرنسيّ الشهير الإمبراطور "نابليون بونابرت":

"لو أنَّ الدنيا دولة واحدة فقط، لكان ينبغي أن تكون عاصمتها إسطنبول؛ لأنَّ من يحكم إسطنبول يحكم العالم".

(١) خالوق دورسونفن، فن الحياة في إسطنبول، إسطنبول ١٩٩٩م، ص ١٨.

وقد شُـيّدت إسـطنبول في الحادي عشـر من مايو/أيّار عام (٣٣٠م)، وكانـت مَطْمعًا للغزاة على مدار التاريخ، وتعرَّضت للحصار من قِبل أمم شـتَّى، وفـي عهد الخليفـة الثالث سـيدنا "عثمان بن عفـان" ﷺ حاصرها المسـلمون أول مـرّة عـام (٦٣٢هـ) بقيادة "معاويـة" ﷺ والي الشـام، ثمَّ حاصرها "سفيان بن عوف"، إلا أن جميع تلك المحاولات باءت بالفشل، ثم توالت عليها ستَّ حملات متفرِّقة في أوقات مختلفة.

أمَّا عن إسـطنبول فـي العهد العثماني، فإنّ "يلدريـم بايزيد" حاصرَها مرَّتين، وكانت المرَّة الثانية بعد حرب "نيغبولي"[٢] عام (١٣٩٦م)، لكنَّه لم يتمكَّن من فتحها، ثمَّ حاول "موسـى شـلبي" فتحَها، وتلاه السلطان "مراد الثاني" عام (١٤٢٢م)، ولم يتمكَّنا من فتحها أيضًا.

بشارة عظيمة

عندمـا زار "أدرنـه" صوفيُّ العصر الكبيرُ "الحاج بيرام ولي"، اسـتقبله السلطان "مراد الثاني" وطلب منه قائلًا:

> "يا شيخي أريدُ فتحَ القسطنطينية؛ فقد حاول جدَّاي السلطانُ بايزيد وموسـى شـلبي فتحهـا، إلا أنَّهما لـم يُوفَّقا فـي ذلك، وأنا كذلـك؛ إنَّ القسـطنطينية مهمَّـةٌ جدًّا لنا، فـادع الله أن يكون الفتح على أيدينا.

وردّ "الحاج بيرام ولي" على السلطان قائلًا:

(٢) هي معركة جرت بين العثمانيين و عدد من الدول الأوروبية بقيادة "سيجموند" ملك المجر في عام (١٣٩٦م) بعد أن قطع نهر الدانوب و حاصر "نيغبولو" و كان العثمانيون بقيادة السلطان "بايزيد الأول"، وفاز الجيش العثماني بهذه المعركة.

"مولاي السلطان، إنَّك لن تفتح هذه المدينة، وأنا أيضًا لن أشهد ذلك اليوم؛ لأنَّ الفتح سيكون من نصيب هذا الأمير الذي لا يزال في المهد ومعه شيخُه "كوسة"[٣]".

وأشار الشيخ بذلك إلى الأمير "محمد شلبي" و"آق شمس الدين".

وفي السنوات التالية نرى أن السلطان **مراد** وهو يُشجّع ابنه الأمير محمّد يقول له:

"يا محمد، ستَفتح القُسطنطينيَّة مع الشيخ **أق شمس الدين** بإذن الله تعالى"[٤].

إنك فاتح "إسطنبول"

السلطان "محمد الفاتح" هو السلطان السابع للدولة العثمانيَّة، وُلد في يوم الثلاثين من مارس/آذار عام (١٤٣٢م) بمدينة "أدرنه"، وهو الابن الرابع للسلطان مُراد، وأمُّه تُدعى "هوما خاتون"، ولِيَ مدينة "مانيسا" وهو في الحادية عشرة من عمره.

وذات ليلة بينما كان الأمير محمد يتلقى العِلْمَ عن شيخه آق شمس الدين، إذ دخل عليهما رسولٌ يخبرهما بأنَّ الجيش الصَّليبي قد اقتحم قِلاع "عكَّا" و"صيدا" و"بيروت"، وأسروا آلاف المسلمات وأخذوهنّ إلى ديارهم، فحَزِن الأمير محمد لِما سمع من سقوط المدن المذكورة رغم أنَّها بحوزة المماليك، وبكى طويلًا في سكون الليل، وكان آق شمس الدين يواسي تلميذه قائلًا:

(٣) كوسة: أساس هذه الكلمة تعني بالتركية: الرجلَ الأمرد، لكنّها أُطلِقت هنا لقبًا على الشيخ " آق شمس الدين" شيخ السلطان "محمد الفاتح".

(٤) سهيل أونور، رسائل إسطنبول، إسطنبول عام ١٩٩٥م المجلد الثاني ص ١٥٢.

"لا تحزن يا أميري؛ فإنَّك ستَفتح إسطنبول يومًا ما، فاعدل بين المجاهدين يوم النصر".

ثم نزع الشيخ عمامتَه، ووضعها على رأسِ الأمير الصغير، وبشَّره بفتح إسطنبول، وقرأ عليه الأحاديث الواردة في الفتح، وكان يواسيه قائلًا: ﴿**لكلِّ أجل كتاب**﴾[٥].

وهكذا رسخت فكرة فتح إسطنبول في ذهن محمد الفاتح منذ ذلك الحين[٦].

فكَّر السلطان **مراد** في التَّنازل عن الحكم؛ فأحضر ابنه من "مانيسا (*Manisa*)" عام (١٤٤٤م) بعد عام واحد من توليه لها، فترك له العرش، وذهب إلى "بورصة"، إلا أنَّ التَّنازل عن السلطة لأمير في الثانية عشرة من عمره بلا تجربة أدَّى إلى حدوث أَزَمات كبيرة داخل البلاد وخارجها؛ فعاد السلطان مراد للحكم مرَّة أخرى، وأُرسل السلطان الشاب مرَّة أخرى إلى "مانيسا" بعد أن حكم البلاد عامين.

وإبَّان وفاة والده تولَّى السلطان محمد العرش للمرَّة الثانية في الثامن عشر من فبراير/شباط عام (١٤٥١م)، وكان عمره آنذاك تسعة عشر عامًا، وفي تلك السنوات تحسَّن وضع البلاد السياسي، وكُسرت شوكة أوروبَّا وأصبح من الصعب عليهم القيام بأيّ حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ ضد العثمانيين، وأصبحت الفُرْصة سانحة لفتح إسطنبول.

عروس المدائن

عندما استقرت أوضاع الدولة العثمانيَّة استقرارًا تامًّا في "آسيا"،

(٥) سورة الرعد ٣٨/١٣.

(٦) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني ص ١٥١.

كانت حدودها قد امتدَّت في أوروبَّا إلى نهر الدانوب، وكان الاستيلاء على المضائق لا بُدَّ منه لربط أراضيها في القارتين؛ فالنَّصر في حروب الأناضول سيبقى مرهونًا بعبور جيش الروملي[٧] إلى الأناضول، أو عبور جيش الأناضول إلى الروملي.

وكانت الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة في إسطنبول عقبةً أمام العثمانيّين؛ فهي تتظاهر بالودِّ معهم من ناحية وتحرّض أوروبَّا على العثمانيين من ناحية أخرى، وكان العثمانيون دائمًا ما يلقون مقاومةً عنيفةً من البيزنطيين في أوقات الشدّةِ أو يتعرّضون لهجماتِ أسطول "البندقيّة" حليفة "بيزنطة".

وإضافة إلى المشكلات العسكريَّة، فهناك أزمات اقتصاديَّة استوجبت فتح إسطنبول؛ حيث أن القسطنطينيَّة آنذاك من أهمّ مراكز التجارة العالميَّة.

وهناك عاملان أساسيان دفعا السلطان محمد الفاتح إلى فتح إسطنبول، أوَّلهما: أنَّ الفتح على أمّ المدائن يعني زيادة موارد الدولة الاقتصاديَّة، والآخَر: إرساء الأمن داخل حدود دولته[٨].

"فَلَنِعْمَ الأميرُ أميرُها"

أخبرنا الرسول ﷺ بمعجزة نبويَّة في حديث شريف بأنَّه ستفتح إسطنبول يومًا ما بأيدي المسلمين حيثُ قال:

> ''لتفتحنَّ القُسطنطينيَّة، فلَنِعْم الأميرُ أميرُها، ولَنِعْم الجيشُ ذلك الجيش''[٩]

(٧) الروملي: اصطلاح عثماني أطلقه الأتراك على القسم الأوروبي من إسطنبول وما خلفه من الأراضي الأوروبية.

(٨) فريدون دريمتكين، فتح إسطنبول، إسطنبول عام ١٩٧٦م، ص ٥٣

(٩) المسند لأحمد بن حنبل، ٢٨٧/٣١ لمعلومات أكثر تتعلق بحديث الفتح، ينظر: الأستاذ الدكتور إسماعيل شكان، الأحاديث النبوية تلقي الضوء على الحقائق، إسطنبول ١٩٩٣م ص ٢٥١: إمام زاده محمد أسعد أفندي، حديث الفتح، إعداد د. نجدة يلماز، إسطنبول عام ٢٠٠٢م ص ٨٩.

وكلمة ﴿بلدة طيبة﴾ الواردة في القرآن الكريم توافِقُ بحساب الجُمَّل[١٠] تاريخَ السنة الهجريَّة التي فُتِحَت فيها مدينة القسطنطينيّة، وهي ثماني مائة وسبع وخمسون، أليس نَيلُ هذا الشرف هو غايةُ ما يرجوه قائدٌ أو سلطانٌ يخدم الإسلام والمسلمين؟

طالبُ علمٍ لا ينام

بعد أن قرَّر السلطان محمد فتح إسطنبول، أمر بتجهيز ما يلزم من معدَّات، كصنع المدافع، وإنشاء الأسطول، وبناء قلعة "بوغاز كسن"، لم يَغْمض له جَفْن طوال الليالي لانشغاله بتجهيز ووضعِ الخطط لفتح إسطنبول.

كانت أمام قصر "أدرنه" مدرسة نورُها يضيء في منتصف الليل رغم إطفاء كلِّ أنوار المدينة، فسأل السلطان الفاتح ذات يوم وزيره "جاندارلي خليل" قائلًا:

- في تلك المدرسة شخصٌ لا ينام الليل، أريد أن أعرف من هو، ولماذا لا ينام؟

انطلق "خليل باشا" وسرعان ما عاد بالخبر الآتي:

- سيدي السلطان، إنه طالب عِلْمٍ يذاكر دروسَه بالليل.

قال السلطان **الفاتحُ** متعجِّبًا:

(١٠) حِسَاب الجُمَّل أو الترتيب الأبجدي هو طريقة لتسجيل صور الأرقام والتواريخ باستخدام الحروف الأبجدية، إذ يعطى كل حرف رقمًا معيّنًا يدل عليه، فكانوا من تشكيلة هذه الحروف ومجموعها يصلون إلى ما تعنيه من تاريخ مقصود وبالعكس كانوا يستخدمون الأرقام للوصول إلى النصوص..

- يا للعجب! فلْيذاكر بالنهار، ولْينَمْ بالليل، أم إنَّه يفكِّر مثلي في فتح إسطنبول في كلِّ لحظة؛ فلا ينام؟![١١].

القلعة التي شُيّدَت خلال أربعة أشهر

كان يجب على السلطان محمد غلقُ المضائق أوَّلًا من أجل فتح إسطنبول، وقَطْعُ صِلَةِ القسطنطينيَّة عن مراكز التَّموين في البحر الأسود، ثم تأمين معابر الأساطيل بين الأناضول ورومللي، وبناء قلعةٍ جديدةٍ مقابل قلعةِ الأناضول لنصبِ مدافع تمنع السفنَ من العبور إلى أراضي البيزنطيّين؛ فأمر السلطان جاندارلي خليل باشا ببناء قلعة جديدة، وصمَّم القلعة على شكل كلمة "محمد" وهو اسم من أسماء النبي ﷺ، وشيد هناكَ أبراجًا متعدّدة، وافتتحت قلعة روملي حصاري في السادس والعشرين من مارس/آذار (١٤٥٢م)، وعَمل في بنائها ثماني مائةِ خبير وأربعةُ آلاف عاملٍ لسرعة إتمامِها؛ فتمَّ بناؤها في شهر أغسطس/آب من نفس العام، أي إنَّ بناءَها تمَّ خلال أربعةِ أشهُر فقط.

السلطان يقدر المهارة

عهد السلطان الفاتح إلى المهندس "صاروجه بك" والمعماري "مصلح الدين" بصنع مِدفعٍ قادرٍ على تحطيم أسوار العدوّ في إسطنبول، وأثناء ذلك قَدِم مِن المجر صانعُ مَدافعِ مَجَريّ يُدعى "أوربان"، وتوجَّه إلى الإمبراطور البيزنطيّ باحثًا عن عملٍ، ثمَّ ترك المدينة حزينًا حيث أن الملك لم يقدِّره، وأمر له بأجرةٍ قليلةٍ جدًّا على عمله؛ وتوجَّه إلى السلطان الفاتح، فألبسه الفاتح الحُلَّة السلطانيَّة، وخصّص له راتبًا كبيرًا جدًّا.

(١١) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني ص ١٥١.

يقول المؤرِّخ "دوكاس(*Dukas*)":

"لـو أن الإمبراطـور البيزنطـيّ منـحَ "أوربان" ربـع ما منحه السلطان الفاتح لما ترك العمل عنده".

ولمَّا سأله الفاتح:

-هل تستطيع صنعَ مِدفع يُحطِّم أسوارَ إسطنبول؟

أجابه أوربان قائلًا:

-نعم أستطيع

فهو يعلم سمك أسوار إسطنبول، إلا أنَّه أخبر السلطان بأنه لا يعلم شيئًا عن مدى القذيفة واتِّجاه الرمي، فأخبره الفاتح بوجود مهندسين خبراء بهذه الأمور لديه، فأرسل أوربان ليعمل مع كل من "صاروجه" و"مصلح الدين"، وهكذا شرع في صنع المَدافع الثقيلة.

والمعلومات التي أوردها المؤرخون المعاصرون تفيد أنَّ أوربان كان حاذِقًا في صناعة المَدافع، ولكنْ ليس من الصواب أن يُنسب إليه شرف صناعة المَدافع التي حطَّمت أسوار العدو في إسطنبول؛ لأنَّ النصيب الأكبر من هذا الشرف يرجع للسلطان الفاتح، الذي فكَّر في الاستفادة من علمه، ثمَّ كلَّفه بصناعة تلك المَدافع، وأمر باستخدام القذائف بحيث يزيد من كثافة النِّيران، وهناك نصيب كبير من هذا الشرف أيضًا لكلٍّ من المهندس والمعماري اللذَين قدَّرا مرمى المِدفع، وحدَّدا اتّجاهاته، وأشرفا على صُنعه(١٢).

(١٢) دريمتكين، المصدر السابق، ص ٦٢ و ٦٣.

بعد عملٍ استغرقَ ثلاثةَ شهورٍ أمكنَ تجهيزُ أثقلِ المَدافع التي صُنعت لتحطيم أسوار العدوّ في إسطنبول، وكان قُطْرُ المِدفعِ الواحد حوالي أربعة وثمانين سنتيمترًا ونصف، ويقذفُ قذيفةً من الجرانيت تزِنُ ستَّمائة كيلو جرام، ولا يُمكن تحريكه إلا بمائةٍ من الثِّيران.

الاستعدادُ أوّلا

قضى الفاتح شتاء عام (١٤٥٢-١٤٥٣م) في الإعداد لحصار إسطنبول، حتى استجوبوا كلَّ تاجرٍ يخرج من إسطنبول؛ ليجمعوا معلومات عن الحالةِ الاقتصاديّة والاجتماعيَّة والنفسية، والأحداث الجارية في المدينة، والمساعدات التي تأتيها، ومدى صمود الأسوار، وأُرسل الجواسيس بوسائل متنوّعة إلى إسطنبول.

كان السلطان قد أمر بإعداد خرائطَ مُفصَّلة عن أسوار إسطنبول فيها أدقّ التفصيلات عن الخنادق والأبراج والأبواب، وبدراسةِ ما حدثَ من أخطاءٍ أثناء محاولات حِصار إسطنبول سابقًا، واجتهد في اتّخاذ كلِّ التدابير اللَّازمة للحيلولة دون الوقوع في أخطاء السابقين، كما أمر بتحصين القلاعَ على طولِ نهر الدانوب تحسُّبًا لأيِّ خطرٍ محتمَلٍ قد يأتي من أوروبَّا، وتركَ كتيبةً مرابطةً حامية هناك.

أمام أسوار "طوب قابي"

تحركت المَدافع الثقيلة من "أدرنه" في اليوم الأول من فبراير/شباط (١٤٥٣م)، وكان بعضها يحرّكه ثمانون ثورًا، وبعضُها مائة، ويسير بجانب كلِّ مدفع مائتا شخصٍ لمساعدتِها في السحب، وأمَّا تمهيد الطُّرق التي سيسِير عليها الجيش، فقد كلّف مائتا عاملٍ وخبيرٍ، إضافةً إلى خمسين

سائق عربة، ووصلت المدافع إلى مَشارف إسطنبول بعد مسيرة دامت أربعة وستين يومًا.

تحرّك مُعظم الجيش العثمانيّ بعد تحرك جنود المدفعيَّة بشهرين، ووصل إلى مَشارف إسطنبول في نهاية اليوم العاشر من إبريل/نيسان (١٤٥٣م)، وعسكر الجيش فورًا على بُعْد ميلين ونصف من الأسوار، واستقروا على مَقرُبة سبعمائة وخمسين مترًا من أسوارِ القسطنطينية العِمْلاقة، ونُصِب المِدفع العِمْلاق أمام أسوار طوب قابي مباشرة.

تمركز جيش الفاتح المكون من ثمانين ألف جندي على مشارف إسطنبول على النَّحو التالي:

المركز: منطقة طوب قابي -بين طوب قابي وأدرنه قابي- بقيادة قاراماني محمد باشا، وكان السلطان الفاتح، والصَّدر الأعظم خليل باشا، وكلُّ وَحَدات قابي كولي -فِرَق الحرس الخاصّ- مرابطين في تلك المنطقة.

الجناح الأيمن: المنطقة الممتدة من طوب قابي إلى "يدي كولة (*Yedi kule*)"، عَسكَر فيها جيش الأناضول، بقيادة إسحاق باشا أمير الأمراء.

الجناح الأيسر: المنطقة الممتدة من "أدرنه قابي" حتى الخليج، عَسكَر فيها جيش الروملي، بقيادة "قره جه بك" أمير الأمراء.

أُوكِل أمر منطقة "بيْ أوغلو" إلى "زاغنوس محمد باشا".

أمَّا الأسوار المُطلَّة على بحر "مرمرة"، فقد عسكر أمامها الأسطول المُكوَّن من أربعمائة سفينة بقيادة الأميرال "بلطة أوغلو سليمان".

ونُصِبت خيمةُ السلطان الحمراءُ المُزينَّة بالشرائط الذهبيَّة على تلَّةٍ أمام طوب قابي، بحيث يرى السلطان كلَّ الساحة الممتدَّة من طوب قابي حتى قصر الإمبراطور البيزنطيّ، كانت تلك الخيمةُ المُزخرفةُ على بُعْدِ ألف ومائتي متر من أسوار طوب قابي في منطقة تُسمَّى مالتبه "*Maltepe*"، وقد اتَّخذها السلطان مراد في وقتٍ سابقٍ مقرًّا للقيادة أثناء حصاره لإسطنبول.

السلسلةُ التي سدّت الخليج

كان ارتفاعُ الأسوار الإسطنبوليّة يتراوحُ ما بين أحد عشر إلى خمسة عشر مترًا، أمّا عرضُها فهو خمسةُ أمتارٍ على الأقلِّ، وعلى الأسوار ستَّة وتسعون برجًا، مُتوسِّط ارتفاعِها ثمانية عشر مترًا تقريبًا.

كان كلُّ سُور من الأسوار مُحاطًا بخندقٍ تبلغُ سعته ثمانيةَ عشرَ مترًا ونصف، ومُتوسِّط عُمْق الخنادق سبعةَ أمتار، والمدينة مُحاطةٌ بثلاثة أسوار متتاليةٍ مختلفة الارتفاعات، ومَحميَّةٌ بخمسة عشر ألف مقاتل من جنسيَّات مُختلفة، ولم يكن هناك جنود كثيرون لحماية أسوار الخليجِ ومرمرة؛ لأنَّ أسوار مرمرةَ لا يُمكن التعرُّض لها إلَّا عن طريق البحرِ فقط، وأسوار الخليج مَحميَّة بسلسلة تمتد بين قرني "غلاطة مومخانه" و"سراي بورنو"، وكانت هذه السلسلة تُعيق دخول الأُسطول العثمانيّ إلى الخليج.

وقبل الحصار أَرسل السلطانُ الفاتح الوزيرَ محمود باشا إلى الإمبراطور، وطلب منه تسليم المدينة، إلا أنَّ الإمبراطور رفض هذا العرض؛ وبناء على ذلك بدأ قصف أسوار المدينة بالقنابل في الثاني عشر من إبريل/نيسان (١٤٥٣م)، وحطّم قصف القنابل معنويَّات الأهالي، واعتقدوا جميعًا بأنَّ أسوار المدينة لن تصمد كثيرًا أمام هذه المَدافع

الحديثة، وبذل جنود الإمبراطوريَّة في تلك الفترة كلَّ قوَّتهم لترميم الأسوار، وجرَّبوا حلولًا عديدة من بينها مَلؤ البراميل الخشبيَّة بالتراب، ووضعها في الأماكن المُتهدِّمة من الأسوار.

سلطان يمخر عُباب البحر بفرسه

في اليوم العشرين من إبريل/نيسان من نفس العام أَرسل البابا إمدادات لإسطنبول وكانت تلك الإمدادات عبارة عن ثلاث سفن كبيرة، وعلى متنها أربعمائة مقاتل، وسفينة أخرى قادمة من "سيسيليا" فيها معدَّات حربيَّة وقمحٌ، وقد ساعدتها الرِّياح على الاقتراب من المدينة، ورغم أنَّ ثماني عشرة سفينة من الأُسطول العثمانيّ تصدَّت لها بشدَّة وبذلت كلَّ قوَّتها إلا أنَّها لم تتمكَّن من إيقافها؛ كان السلطان يتابع المشهد من ساحة "زيتن بورنو"، ولما رأى انسحاب الأسطول العثماني وعودته نحو موقعه على الساحل، لم يُطق صبرًا، واندفع بفرسه نحو البحر، ودنا من الأسطول مسافةَ مرمى حجرٍ واحد، وكان الماء ضحلًا، فتقدَّم بفرسه مسافةً كبيرةً، حتى إنَّ عباءته ابتلَّت بالماء عندما اقترب من الأُسطول، وجنوده يَتْبعونه من خلفه؛ وأمر الأُسطول بالهجوم مرَّةً أخرى، وكان القادةُ على الشاطىء يُشجِّعون جنود البحريَّة بهُتافاتهم، وينتظرون منهم النَّصر، إلا أنَّ سُفن العدوِّ استطاعت بمساعدة الرِّياح القويَّة أن ترسوَ على أحد موانئ ساحل مرمرة.

وقد تم عزل "بالطه أوغلو سليمان" من قيادة الأُسطول إثر هذا الفشل، وتولى "حمزة بك" قيادةَ أسطول الدولة العثمانية.

السفنُ التي أبحرت في البرّ

كان السلطان الفاتح يريد بتضييقه الخِناق على أسوار الخليج أن يدفع العدوُّ قوَّاته إلى الخليج، وبذلك ينجحُ في تشتيت شمل قُوات العدوّ، وكانت قوّةُ السلسلةِ واحتماءُ السفن الأربع للعدوِّ بالخليج سببًا في فشل مُحاولات الأُسطول العثمانيّ في العبور؛ وهذا ما دفع السلطان للبحث عن حلولٍ أُخرى، فقرَّر إنزالَ بعض سفن الأُسطول إلى الخليج عن طريق البرِّ؛ واكتملت الاستعداداتُ كلّها بحلول الثاني والعشرين من إبريل/نيسان (١٤٥٣م).

كان الطريق المؤدي بالأُسطول العثمانيّ إلى الخليج يبدأ من "طوب خانه"، ويصعدُ قليلًا، ويمتدُّ إلى المكان الذي توجد فيه القُنصليَّة الرُّوسيَّة في شارع "تونال" حاليًّا، ومن هناك يَجتاز التلَّ، ثمَّ يَهبط إلى "قاسم باشا" من ناحية "باره بالاس (*Pera Palas*)" حاليًّا.

لقد أمر الفاتحُ القوى العاملةَ بتمهيد هذا الطريق جيّدًا، ثمَّ بُسطت عليه جُذوع شجرٍ ثخينةٍ، ثمَّ رُبطت هذه الجُذوع ببعضها بإحْكام، ودُهنت بالشحم الحيوانيّ وزيت الزيتون بغزارة، وتمَّ تجهيز زلَّاجات لكلِّ سفينةٍ سيتمُّ نقلُها، ووُضعت بَكَراتٌ على الأماكن اللازمة لتيسير السَّحْب، وجيءَ بالحيوانات لجرِّ السُّفن، وكان يبلغُ طول هذا الممرّ الذي تمَّ إعدادُه ألفًا وخمسمائة واثني عشر مترًا.

وفي مساء الثاني والعشرين من إبريل/نيسان بعدما أَسدل الليل ستاره تمَّ إنزال الزلَّاجات إلى البحر بعد إرساءِ السُّفُنِ عليها وربطِها بها، وقُرعت الطُّبول للحيلولةِ دون سماع العدوِّ صوت السفن أثناء نقلها؛ وفي النِّهاية

تمَّ جرُّ اثنتين وسبعين سفينة في ليلةٍ واحدةٍ إلى حافّة الخليج الممتدّة حتى المكان القائم عليه الآن جامع "بيالا باشا"، لقد جرَت هذه الاستعدادت بسرِّيَّة تامَّة، حتى إنَّ البيزنطيّين، وكذا العاملين في تمهيدِ الطريق لم يستطيعوا معرفةَ الهدفِ الأساسيّ لما يَحْدث إلَّا في اللَّحظة الأخيرة.

تكريم رافع الراية

بدأ الجيشُ العثمانيُّ مرحلةً جديدةً من الحرب وهي حَرْبُ الأنفاق بعد الثالث عشر من مايو/أيار (١٤٥٣م)، فقد أراد الجيشُ بحفرِ الأنفاق تحت الأرض تخطّي الأسوار العِمْلاقة، التي يبلغ ارتفاعُها ثمانيةَ عشر مترًا، وتحطيم الأسوار عن طريق الأبراج العظيمة التي تتحرَّك بعجلات خشبيَّة والتي يزيد طولها كثيرًا عن ارتفاع الأسوار.

ازداد القَذْف تدريجيًّا حتى أَحدثت القذائف -التي تزن ستَّمائة كيلو جرام- أضرارًا كبيرة في الأسوار، ورغم أنَّ الجنود البيزنطيّين بذلوا أقصى ما في وُسعهم بمعاونة الأهالي لرَأْب الأسوار، وإصلاح الأضرار التي أحدثتها نيران المدافع، إلَّا أنَّ اليأس كان يزداد شيئًا فشيئًا بين الجنود والأهالي؛ فقد كانوا يتساءلون قائلين: "إلى متى يمكننا أن نستمرّ في هذه المقاومة؟!"

وقبل الهجوم الأخير لاحظَ السلطان الفاتح الدَّمار الكبير الذي حلّ بالأسوار، فجدَّد عرضَه الصلحَ على الإمبراطور، وأَرسل في الثالث والعشرين من مايو/أيار من نفس العام "قاسم بك" إلى البيزنطيّين للتفاوُضِ معهم، ولكنَّهم رفضوا الصلح للمرّة الثانية؛ فاجتمع السلطان بالقادة وتشاوَرَ معهم في الأمر، فعرض الصدر الأعظمُ جاندارلي خليل

باشا فكرةَ رفعِ الحصارِ مقابلَ فرضِ ضريبةٍ باهظةٍ، أمَّا "زاغنوس باشا" و"طورهان بك" و"آق شمس الدين"، ومعلِّم السلطان "الملا جوراني" فكانوا يدافعون عن فكرة الهجوم فورًا.

لم يكن السلطان الفاتح يرغب في اتِّخاذ أيّ قرار قبل جَمْع معلومات تفصيليَّة؛ فأمر "زاغنوس باشا" بتفقُّد الجبهة، واكتشافِ الدمار الذي أحدثته المدفعيَّة في الأسوار، واستكشاف حالة الممرَّات، وتقييم الحالة المعنويَّة للجنود ومدى إصرارِهم على النصر، وعرض كلِّ تلك المعلومات عليه في الحال، ثم أُعلن الهجوم العامُّ في اليوم التاسع والعشرين من مايو/أيار بناءً على ما تحمله الأبحاثُ والدراسات التي أعدّها "زاغنوس باشا" بعد جهدٍ كبير.

وتعالت صيحات المُنادين، وهم يطوفون في كل ثُكنة من ثُكَن الجيش:

> ''ستُفْتح القلعةُ يوم التاسع والعشرين من مايو/أيار بإذن الله، فلْيكن الهجومُ عنيفًا؛ وأوَّلُ من سيقتحِم الحِصْن، ويرفع الرَّاية العثمانيَّة فوقه، سيُعيَّن واليًا على مُقاطعةٍ، وسيُمنح قِطْعة أرضٍ مكأفاةً له''.

حفلُ إشعالِ النار

بدأ إشعالُ النارِ عقِبَ صدورِ قرارِ الهجوم العامّ، وأصبحت الأسوارُ البيزنطيَّة داخل حلقةٍ مقفلةٍ من النار، فقد أُوقِدَت النيران في مقرَّات الجيش في إسطنبول وفي "بيْ أغلو" من غروب الشمس إلى منتصفِ الليل، واستمرَّ القصف المدفعيُّ على ضوءِ النيران المشتعِلَة، حتى لا يتمكَّن العدوُّ من ترميمِ الأسوار في ظلام الليل.

كان السلطان الفاتح يطوف على الجبهة كلَّ يوم عدَّة مرَّات، حيث يتقابلُ مع القادة والجنود، ويتفقّدُ الممرَّات للاطمئنان على سلامة أدائها العسكري ثمَّ يصدر أوامره إلى رجال المدفعيَّة لتوسيع فتحات الأسوار أضعافًا مُضاعفة.

صدرت الأوامر للجيش ليلة السادس والعشرين من مايو/أيّار من نفس العام بصوم اليوم التالي، وهذا من شأنه أن يحرّك المشاعر الدينيَّة، ويرفعَ الروح المعنويَّة لدى الجنود، فسادت أجواءُ الفرح والسرور في الجيش العثمانيّ تلك الليلة.

توجيهات السلطان الفاتح إبان الفتح

ومساء اليوم التالي جمَع السلطان الفاتح قادة الجيش والأُسطول والولاة والأمراء، وأبلغهم أوامرَه التالية:

''أيها السّادة، الأمراء، القادة، ويا رفاق الدرب:

إنما دعوتكم لأقول لكم: إن ما قمنا به من أعمال، وما حقّقناه من نجاحاتٍ إنما هو نتيجة جهدكم وشجاعتكم بعد فضل الله ومنّتِه، ولِأُذكّرَكم أنّ النصر القادم سيزيدُ من شرَف الدولة ومجدِها، فضلًا عن شرَفِنا ومجدِنا، وأنَّ هذا النصرَ العظيمَ ثابت بما نُقل إلينا من بشارات وأحاديث نبويَّة شريفة، قاتلوا دون أن تَنْسَوا أنَّكم تَخدمون غايةً ساميةً جدًّا، قاتلوا قتالًا يليق بما حقَّقتموه في الماضي من بطولاتٍ عظيمة؛ احرصوا أن يمضي جنودكم في الطريق نفسه؛ حدِّثوا جنودكم أنَّ النصرَ في الحرب قرينُ المثابرةِ والشَرَفِ والانضباطِ، وهذا ما سيضمنُ النصر بإذن الله، أما أنا فسأبدأ بنفسي أوَّلًا، وأعمل معكم يدًا بيد، وسأتابع أعمالكم''.

القائد على خطّ النار

هُـرع أهالـي القسـطنطينيَّة إلى الهـروب الجماعيّ مـن المدينة عقِب سـماعهم قـرارَ الجيـش العثمانـي بالهجوم العـامّ، واسـتخدموا القواربَ الصغيرةَ والكبيرةَ على ساحل "مرمرة"، وهربوا ليلًا إلى الجُزُر المجاورة، وإلى مناطقَ محيطة بهم يسكنها الرُّوم.

ونتج عن القصفِ المدفعيّ المكثَّف فتحُ ثلاث فجوات كبيرة بالأسوار لا يمكن سـدُّها، بلـغَ حجمُ أكبرها أربعمائة متر، وهـي تلك الفتحة التي تقـع بجوار "طوب قابي" على الأسـوار الممتدّة حتى وادي "بيرام باشـا"، وحـاول رجـال المدفعية -من خـلال القصفِ المتواصِل- توسـيعَها أكثر فأكثر بحيثُ لا يُمكِنُ إصلاحها.

مـع إطلاق إشـارةِ الهجوم فجر اليوم التاسـع والعشرين من مايو/أيّار (١٤٥٣م)، بـدأت الوحـدات العثمانيَّة بالهجوم، وبـدأت كلّ فِرَقِ الجيش الموسـيقيَّة والمزاميرُ والطُّبول والدُّفوف في دقِّ مراسم الحرب تزامنًا مـع هجـوم الجيـش العثماني، كانـت القـوات العثمانيَّة تنهالُ على الأسـوار، هاتفـةً "الله أكبـر الله أكبر"، وبالرَّغم من نجاح البيزنطيّين بصعوبة في صدِّ أوَّل هجومين، إلا أنَّ قُواهم قد خارت.

شـعر الفاتح بما دبَّ في عدوه من خور ويأس، فقرَّر النزول بالضربة الأخيرة القاضية؛ لذا أمر الجنود الإنكشاريَّة بالهجوم مـع القوَّات الاحتياطيَّة، وتوجَّه بنفسه على رأس القوَّات إلى الخنادق، وكان لقيادة السلطان بنفسه قوَّاته الخاصَّة إلى الخنادق تأثير عظيم على الإنكشاريَّة خاصَّة، ولمَّا اشتدَّ

الوطيس صدر أمر الهجوم لاثني عشر ألف مقاتل من الإنكشاريَّة، الذين تلقَّوا أفضل التدريبات، وأُوكلت إليهم مهمَّة إحراز النصر.

استشهاد "حسن الأولوباتي" (*Ulubatlı*)"

كان في كتائب الهجوم جندي إنكشاريٌّ، عِمْلاق البنية، ذو قوَّة عظيمة، يدعى "حسن الأولوباتي"، وقد تمكن هذا الجندي من تسلُّق السُّور، وكان يمسك دِرْعه بيده اليسرى يستر بها رأسه، ويقبض على مطرقته بيده اليمنى، وتعقَّبَ البطلَ ثلاثون من رفاقه تقريبًا، ولكنَّ الجنود البيزنطيِّين رموهم بالسهام والحجارة، فسقط ثمانية عشر منهم شهيدًا من فوق الأسوار؛ وقد أسهم "حسن الأولوباتي" في تسلُّق رفقائه السور رغم جراحه، فلم يستطع حماة السور منع ذلك الهجوم لقلَّتهم؛ على الرغم من ذلك فقد سقط عدد آخر ممن تسلَّقوا السور شهداء، وفي نهاية المطاف هوى "حسن الأولوباتي" من فوق السور إثر إصابته بحجرٍ كبير، سقط البطلُ شهيدًا تحت ضرَبات السهام والحجارة، ليخطّ بدمائه رواية النصر التي حافظ عليها العثمانيّون من بعده، وما زال القتال على السور مُستمرًّا، ونجح جنود الإنكشاريَّة في الزحف داخل الأسوار محافظين على تقدّمهم شيئًا فشيئًا[١٣].

دخول المدينة

مالت كِفَّة الحرب لصالح العثمانيِّين تدريجيًّا؛ ففي نهاية المعارك الدامية تجاوز جنود الإنكشاريَّة الجرف الناتج عن القصف المدفعيّ الثقيل، ودخلوا بين سورَين، فاختل نظام الجيش البيزنطيّ، وفرَّ الإمبراطور

(١٣) دريمتكين، المصدر السابق.

"قسطنطين" هاربًا مع جنوده نحو البوَّابة الخلفيَّة، لقد سَحق الجنود بعضهم بعضًا لتدافعهم على الهروب عبر أبواب ضيِّقة، وكان الإمبراطور من بين هؤلاء المسحوقين.

دخلت القوَّات العثمانيَّة إلى القسطنطينيَّة في غضون فترة قصيرة، وكان السلطان الفاتح يتابع -من بُرْجٍ نُصبت عليه رايتُه- تقدُّمَ الجيش عند دخوله إلى المدينة.

قبيل الظهر أصبحت المدينة تحت السيطرة تمامًا، وانتهت المقاومة، وامتطى القائد الشابُّ ذو الثلاثة والعشرين ربيعًا حصانه الأبيض، ودخل المدينة من بوَّابة "طوب قابي" بموكب عظيم، يحيط به الوزراء، والأمراء، والعلماء، والقادة، وشارك في الموكب أيضًا الفُرسان والحُرَّاس والإنكشاريَّة والمشاة والخيَّالة، وحينما دخل السلطان من الباب، رفع سيفه بوقار كبير وصرامة، وهنَّأ الجيش بكلماته:

"الحمد لله أيها المحاربون، لقد فتحتم القسطنطينيَّة".

خرج أهالي القسطنطينيَّة، واصطفُّوا على الطُّرقات لاستقبال هذا السلطان العظيم، الذي حقّق نصرًا سجّله التاريخ، واستقبلوه بالزهور، وقدّموا له باقات الورد، كان السلطان يسلك الطريق بصعوبة مُتَّجهًا إلى "آيا صوفيا"، وحولَه معلِّموه "آق شمس الدين"، و"الملا جوراني"، و"الملا خسرو".

تبجيل الفاتح لمعلّمه

عندما رغِب الناس في تقديم باقات الورد إلى السلطان، رأوا "آق شمس الدين"، فهُروعوا نحوه مُعتقدين من لحيته البيضاء أنَّه السلطان؛

فاستحى "آق شمس الدين" وحاول كبح حصانه ليتراجعَ خلف حصان السلطان، وقال لمن يقدِّمون باقات الورد إليه -وهو يُشير إلى السلطان الشابِّ-:

- هذا هو السلطان محمد، اذهبوا إليه.

فقال السلطان مبتسمًا:

- اذهبوا، اذهبوا إليه ثانية، صحيح أنا السلطان محمد، ولكنه شيخي(١٤).

كان السلطان محمد الفاتح سعيدًا بتفاني معلِّمه آق شمس الدين في عبودية الله، وبالتربية وسَعَة الأُفُق اللتين ربّاه عليهما، حتى إنَّه كان يقول لمن يرى فرحته:

- لا تظنُّوني فَرِحًا بفتح القسطنطينيَّة، أنا فَرِح بمعاصرتي لـ"آق شمس الدين".

الأوامر الصادرة إلى الأمراء

لمَّا دخلت القوَّات العسكريَّة المدينة، ووصلت إلى "آيا صوفيا" التي احتشد فيها المسيحيّون من عامّة الشعب ورجال الدين، نزل الفاتح مِن على حصانه، وأخذ حَفنة تراب من الأرض ووضعها على رأسه، ثمَّ أشار إلى المسيحيين وهم على الأرض سجود باكون أن كفُّوا عن البكاء، ثم التفت إلى البطريرك، وقال بصوت يستطيع أن يسمعه الناس جميعًا:

(١٤) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٥٥.

- كلامي لك يا "أطاناسيوس" ولكلّ مَن يتبَعُك من الشعب، بدءًا من اليوم فصاعِدًا لا تَخْشَوا غضبي ولا الأسر ولا الموت".

ثم التفت إلى القادة وأمراء الولايات قائلًا:

- القادة والأمراء، بلِّغوا الجنود بأنني لا أسمحُ بالعدوان على أي شخصٍ ولا أجيزُ قتلَ النساء أو الأطفال أو حتى الرجال ولن نأسِرَ أحدًا أبدًا، ومن لن يمتثل لأمري فسأقتله كائنًا من كان.

ثم طلب الفاتح بعد كلمته أن يرجع المحتشدون إلى بيوتهم.

من الذي سلّم المدينة وخزائنها؟

وعندما دخل السلطان كنيسة "آيا صوفيا" وجال بها ورأى عظمتَها شعرَ مرَّةً أخرى بعظمة النصر الذي تحقَّق؛ فأمر أحد الأئمَّة الذين بصحبته برفع الأذان، ثم أمَّهم في الصلاة بنفسه.

أمر السلطان بتحويل "آيا صوفيا" إلى جامع دون الإضرار بعمارتها وزينتها، وأن تُقام فيها شعائر أوَّل صلاة جمعة، ثم جال بالقصر الإمبراطوريّ، وعاد إلى معسكر جيشه، ودعا أعيان المدينة، ووزير الإمبراطورية "جراندوق نوتهاراس"، الذي تَعرَّف عليه من قبل، ثمَّ عاتبه قائلًا:

- لقد عمِلتم بكلّ وسعكم لتمنعوا عنّي المدينة، أرأيتَ هذه الكارثة التي نجمت عن مُقاومتكم! يا لَلخراب الذي حلَّ بالمدينة، وبتلك الحشود الهائلة من الأسرى!.

ثم سأله قائلًا -وهو يتسلَّم الكنوز التي قدَّمها له "نوتهاراس"-:

- لماذا لم تنفقوها في الدِّفاع عن المدينة؟!

- كنتُ أُخفيها لكم.

غضب السلطان من جوابه؛ فهو يكره التملُّق، وسأله:

- من الذي منحني هذه المدينة وخزائنها؟

أدرك الوزير قصدَ الفاتح، فأجابَ قائلًا:

- الله.

- ما دام الأمر كذلك، فهذا فضل الله، لا منّتك.

ورغم هذا فإنَّ السلطان عاد زوجة "نوتاراس" التي أقعَدَها الهمُّ والحزن ليواسيها[١٥].

أصبح المستحيل ممكنًا

إن الفتح لا يعني الاحتلال كما يعتقد بعض الناس، وكلمة الفاتح مشتقَّة من نفس الجذْر -وهو الفتح-، وكلمة القائد في ثقافتنا لا تعني الذي يُدمِّر أو يُبيد، إنما تعني الفاتح، وتاريخنا حافل بكثير من الفاتحين، الذين سجَّل التاريخ أسماءهم بحروف من ذهب، أمثال "صلاح الدين الأيوبيّ" فاتح "القدس"، و"طارق بن زياد" فاتح "الأندلس".

كان للسلطان **محمد الفاتح** إرادة لا تَتزعزع، وعزم جعله يقول: ''إما أن أفتح القسطنطينية أو أهلك دونها''، وأفق واسع جعله يقول: ''سيبلغ سلطاني إلى ما لا يبلغه خيالكم''، لقد وضع أهدافَه وأحلامَه في أماكنَ لا تطالُها خيالاتُ وعقولُ أفرادِ عصره، فتجاوز عصرَه إلى عُصورٍ أُخرى، وأصبح المستحيل مُمكنًا، وتحقَّق ما قيل ''إنه لن يتحقَّق''.

(١٥) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني ص ١٥٦.

إنَّ السلطان **محمد الفاتح** إنسانٌ عظيمٌ **وسابِقٌ لعصرِه**، فمن إنجازاته العظيمة صناعةُ المَدافع بحجم لم يُرَ له مثيل من قبل، وكان أوّل من اخترع مِدفع "**الهاون**"، وسيَّر السفن على البرّ، وإنَّ أكبر إنجازاته هو نجاحه وهو ما زال شابًّا يافعًا في إحراز هدفٍ حاول أسلافه مرارًا تحقيقه لكنَّهم عجزوا.

وفاةُ الفاتح

انتقل **الفاتحُ** الذي نال شرف بشرى النبي ﷺ إلى دار الآخرة في الثالث من مايو/أيّار (١٤٨١م) في مرج السلطان عند "**مالتبه** (***Maltepe***)" أثناء إعداده حملة جديدة، ودُفن أمام حائط القِبلة بضريح الجامع الذي بناه في الحيّ المُسمَّى باسمه.

كان **الفاتح** قائدًا عظيمًا، ورجلًا واسع الأُفُق مُثقَّفًا، أَطلق على أوَّل أبنائه اسم جدِّه الأكبر "**يلدريم بايزيد**"، وأَطلق على ابنه الثالث اسم الحاكم الفارسي الشهير "**جام**"، كما أَطلق على حفيده "**أوغوز خان**"، وهكذا اجتمعت في شخصيَّته جذور مُلكٍ عثمانيّة، فارسيّة، إسلاميَّة، رومانيَّة.

إنه الهمام المقدام، سلطان الأرض القائل:

"عرش هذه الدنيا أكبر من أن يتربّع عليه سلطانٌ واحدٌ،

وأصغر من اثنين"

إنـه رمـز الشـجاعة والإقـدام، الصنديـد الذي جنـدل الكماة وسـبق الغمام، إنه عاشق العلم والمعرفة ومحيّر الأفئدة والأفهام القائل:

"حافظـوا على دُرّاعتي هذه يا معلم"، وضعوها فوق نعشـي عند موتي، فإنّ غبارَ نعلِ فرسِ العالِم وسامٌ عظيم لنا".

إنه السلطان العثماني: «ياووز سليم خان»